WWW.ATTAWEEL.COM

مجلة تراثية فصلية محكمة

المجلد الخامس والعشرون ـ العدد الاول ـ ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م

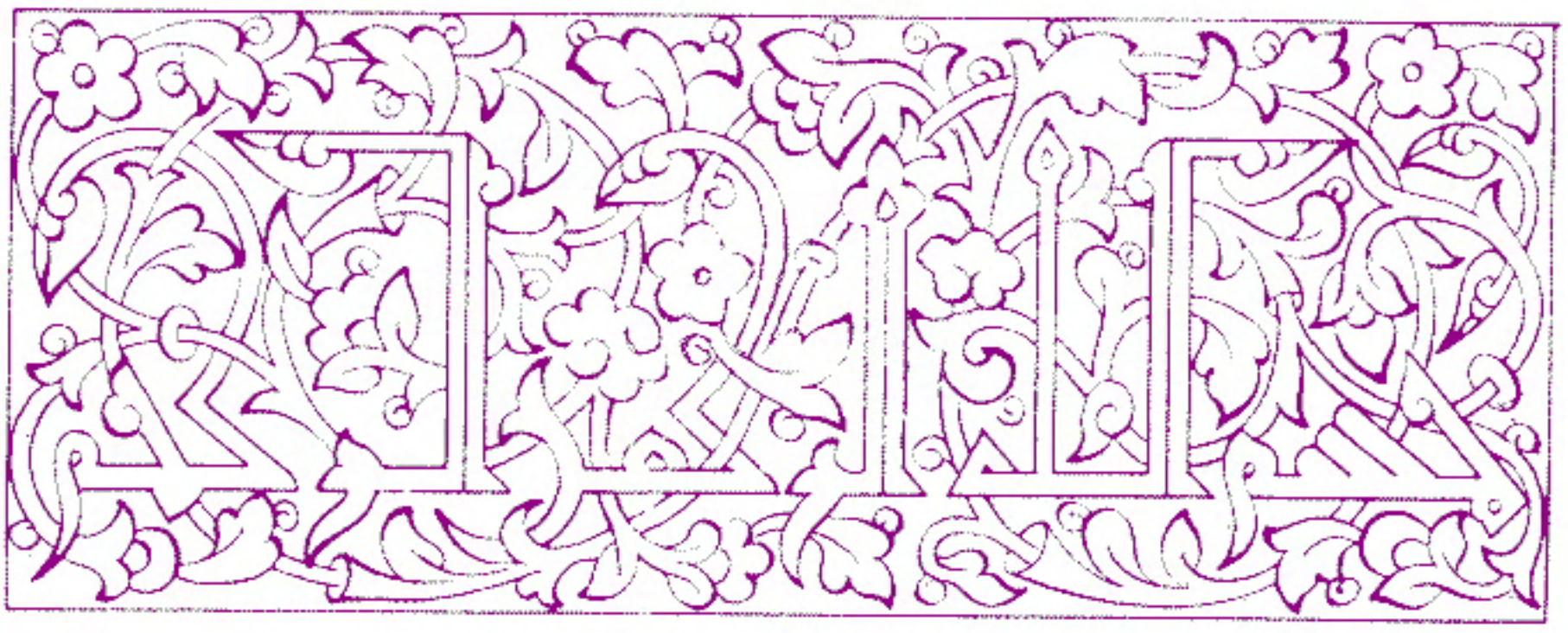

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ جمهورية العراق

أسد الدين محمد

الغربة والاغتراب في التراث

محمد راضي جعفر

اللغة والمصطلح :

عربياً : لا يختلف المعنى اللغوي عن المعنى الاصطلاحي لكلتا المفردتين . .

جاء في اللسان :

« الغَرْب : الذهاب والتنحي عن الناس

الغُرْبة والغَرْب : النوى والبعد ، وقد تغرّب

التغرّب : البعد

الغربة والغَرْب : النزوح عن الوطن والاغتراب

الاغتراب : افتعال من الغربة » .[1]

وجاء في الحديث الشريف :

« اغتربوا ولا تضووا »[2] اي لا تتزوجوا القرابة القريبة

يتضح مما تقدم ان كلاً من الغربة والاغتراب يعني التنحي ، والنوى ، والنزوح ، ولا يتصور الباحث ان صيغة « افتعال » تمنح مصطلح « الاغتراب » سعة وشمولية لا تتوافر عليها « الغربة » كما يرى احد الباحثين »[3] فربما كان وراء هذا الاعتقاد هو اقتصار « الغربة » على البعد عن الاوطان والمدن في الكلام المتداول من جهة ، وتداول « الاغتراب » تداولاً واسعاً في الفلسفة والعلوم الاجتماعية ، وعلم الاقتصاد في الغرب مقترناً بوضع الانسان المعاصر في المجتمع الصناعي الحديث من جهة اخرى ، ومما يؤكد ما ذهبنا اليه ان شيخ الاسلام الهروي الانصاري يضع الغربة والاغتراب بمستوى واحد فحين يفرغ من تعريف الاغتراب يضيف انه « على ثلاث درجات » ـ هي « الغربة عن الاوطان » و « غربة الحال » و « غربة الهمة » .[4]

وها هو باحث معاصر يذكر مانصه :

« المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للاغتراب واحد : الغرب والغربة والاغتراب كلها في اللغة بمعنى واحد هو الذهاب والتنحي عن الناس ، وكذلك في المعنى الاصطلاحي »[5] اي

اننا نستطيع ان نحل مصطلح « الاغتراب المكاني » بدل مصطلح « الغربة المكانية » و « الاغتراب الروحي » محل « الغربة الروحية » وهكذا .

اما اوربياً ، فان الكلمة اللاتينية (Alienatio) هي الاصل الذي اشتقت منه الكلمة الانكليزية (Alienation) والفرنسية (Alienation) . وفعلها هو (Alienare) ويعني : ينقل او يحول او يسلم او يبعد .[6] وقد وردت الكلمة اللاتينية ضمن السياقات : القانوني ، والنفسي الاجتماعي ، والديني .[7]

يعني السياق القانوني : نقل الملكية او تحويلها او تسليمها بوجهيها : القانوني الحر ، والاجباري (الاستحواذ) . فهو فعل حركي طرفاه : الوجود من اجل الذات ، والوجود من اجل الاخر . وقد توافرت المرحلة الاقطاعية على هذا السياق حين كان السيد الاقطاعي وحده من يستطيع البيع او النقل او التسليم . او التحويل وهو ما قاد الى ما يعرف بتشيؤ العلاقات الانسانية .

ويشير السياق النفسي الاجتماعي الى الشرود الذهني وغياب الوعي ، كما كان يعني ايضاً غياب العقل والجنون ، بسبب تركيز اهتمام الفرد في شيء معين بذاته يشغله حتى عن نفسه .

والتوتر النفسي هو انعكاس لوضع الفرد في المجتمع نتيجة ما يوقعه الاخير بالانسان من عقوبات العزل او النبذ بسبب الخروج على المعتقدات والتقاليد السائدة فالمغترب هو من خرج على المألوف الاجتماعي او الديني .

اما السياق الديني فقد ارتبط بفكرة خروج الانسان على نعمة الله اي انفصاله عن الذات الالهية وسقوطه في الخطيئة فهو اذن مغترب عن الله .

الاغتراب ـ الظاهرة

الاغتراب ، ظاهرة ، قديم قدم الانسان في هذا الوجود فمنذ ان تكونت المجتمعات الاولى نشات معها وفي ظل سننها وتقاليدها المشاكل والازمات التي كانت تتمخض ، بشكل او بآخر ، عن انواع من الاغتراب عانى منها الفرد ، وكانت تقوده حيناً الى التمرد والعصيان ومواجهة المجتمع ، وحيناً الى الاستسلام والانعزال والانكفاء على الذات .

وتاسيساً على ذلك فقد نجد فكرة الاغتراب في اشعار هوميروس [٨] (في القرن التاسع قبل الميلاد) ، كما يمكن ادراك بذورها « في نظرية افلاطون عن الروح ـ وفي التصور الافلاطوني عن الاشياء باعتبارها شكلاً فاسداً للمثل المتعالية ـ وفي النظرية الافلاطونية الجديدة (الافلاطونية) عن الفيض ، وفي التفسير المدرسي « السكولائي ، لاسطورة الخطيئة الاولى » [٩] بل لقد تتبعها البعض في حياة « ابرام » حين وعده الله بالنسل والارض قبل ان يصبح اسمه « ابراهيم » [١٠]

وفي ضوء ما حفل به تاريخ البشرية من الاغتراب قال بعضهم : « ان تاريخ البشرية هو تاريخ الغتراب ... تاريخ تشيوء وتاريخ قهر لهذا التشيوء » [١١] فهو والحالة هذه داء عام « يصيب مجتمع الوفرة ، كما يصيب مجتمع الحاجة » [١٢] بمعنى انه لا يختص بعصر دون آخر ، ولا يقتصر على قوم دون آخرين ، ينبت كالنبتة كلما آنس الارض الخصبة .

العرب والغربة والاغتراب

لم يكن المجتمع العربي بمنأى من هذه الظاهر شانه في ذلك شان المجتمعات الاخرى ، فقد ورد « الاغتراب » و « الغربة » مصطلحين ، حيناً ، وفكرة حيناً آخر في العديد من اشعار العرب وكتاباتهم ، وسيعرض الباحث بايجاز نماذج انتقاها من مظان تراثية عدة .

ففي عصر ما قبل الاسلام عرف الشعراء العرب الاغتراب والغربة لفظاً وفكرة ، واحساساً ، في حياة منفتحة ، انفتاح الصحراء على المخاطر والمجهول ،

وامتلأت بالغزوات والصراعات كما امتلأت النفس البشرية ، بالقلق والتمزق والتسول والتجاوز:

في مثل ذلك الطقس اللاهب لم يكن عمر الشاعر ـ وربما الانسان ـ سوى اغتراب ازلي استوطن روحه ، واشعره ان الموت قاب قوسين أو ادنى منه . فها هو بشر بن ابي خازم الاسدي [١٣] يخاطب ابنته اثناء لحظات احتضاره وقد اصابه اسهم الوائلي بسهم ، مستخدماً لفظة الاغتراب وقاصداً المعنيين : النفسي والمكاني :

فان اباك قد لاقى غلاما من الابناء يلتهب التهابا

وان الوائلي اصاب قلبي بسهم لم يكن يكسى لغابا

فمن يك سائلا عن بيت بشر فإن له بجنب الزيد بابا

ثوى في ملحد لابد منه كفى بالموت نأياً واغترابا

وهين بلى وكل فتى سيبلى فاحري الدمع وانتحي انتحابا[١٤]

وورد عن النبي الكريم (ﷺ) انه قال :

« بدأ الاسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء » .[١٥] ويتضح من الحديث الشريف ان الذين استجابوا للدعوة الاسلامية في فجرها كانوا قلة مؤمنة وصفت بانها غريبة في الوسط المشترك ، وقد زالت غربتها بعد ان انتصر الاسلام وهزم الكفر . ولكن الاسلام لا يلبث ان يعود غريباً مرة اخرى عندما يجد المؤمنون انفسهم قلة وسط المسلمين بسبب تفشي الفتن والشبهات . وفي ذلك قال احمد بن عاصم وهو من كبار العارفين في زمنه : « اني ادركت من الازمنة زماناً عاد فيه الاسلام غريباً كما بدأ ، وعاد وصف الحق فيه غريباً كما بدأ » .[١٦]

ومع ترسخ الدولة العربية الاسلامية الجديدة ، نشات العديد من الفرق والملل المذهبية والسياسية بسبب كثرة الصراعات والاحداث التي هزت المجتمع العربي بدءاً من اغتيال ثلاثة من الخلفاء الراشدين مروراً بالصراع الدموي الذي وقع بين الدولة الاموية والبيت الهاشمي ، وقيام دولة بني العباس وانتهاء بقيام الدويلات الجديدة بقيادات غير عربية ، وما تمخض عن كل ذلك من معطيات فكرية شتى ، واجتهادات دينية متباينة غذاها الدرس الكلامي من جهة والفكر اليوناني المترجم من جهة اخرى مما قاد الى اتجاهات مستحدثة في التاويل الفقهي ، والتفسير القرآني الى جانب ما حفلت به الحياة من مظاهر الترف ، والفساد ، الامر الذي اخصب الدعوة الملحة في الرجوع الى جوهر الدين ، واعتزال الحياة وزخارفها ، والعمل للآخرة دار خلود ونعيم . وربما نجد هذا واضحاً لدى الصوفية ، فاغتراب الصوفي هو اغتراب ديني قصد الترفع عن الشهوات والشبهات ، والاقتراب من الله . ومما لاشك فيه ان بذور التصوف ظهرت « في نزعات الزهد القوية التي سادت في العالم الاسلامي في القرن الاول الهجري »[١٧] بسبب « المبالغة في الشعور بالخطيئة ... [و] الرعب الذي استولى على قلوب المسلمين من عقاب الله وعذاب الاخرة » .[١٨]

ان الايغال في التطهر ادى بهؤلاء الى اعتزال الدنيا ومباهجها ، خشية السقوط في الخطيئة ، وقد تطور هذا النهج التطهري من جيل الى آخر ومن شيخ الى شيخ ، اي ان الاغتراب كان هو الاخر يتصاعد بالصوفي عن مجتمعه وحياته عن طريق (الجذب) الذي يقود فيما بعد الى الخروج عن الذات والفناء في الله . فلا عجب اذا وصف الحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩ هـ) نفسه بالغريب والوحيد اذ يقول في احدى قصائده :

انتم ملكتم فؤادي فهمتُ في كل واد
ردوا عليّ فؤادي فقد عدمت رقادي
انا غريبٌ وحيدٌ بكم يطول انفرادي[١١]

ولا عجب ايضاً اذا عدّ الصوفي الناس سبباً في ضياع ذاته ، ومدعاة لاحتراف السفر والتجوال لاكتشافها وتطهيرها من مبائل الدنيا . فغربة المتصوفة غربة كونية انتشلتهم من « الوجود الحسي الارضي بوصفة غريباً وغير اصيل »[١٠] ولهذا نرى ان كلمة « الغربة » من الفاظ معجم المتوصفة فقد كانت عندهم « تطلق بازاء مفارقة الوطن في طلب المقصود ، وتقال الغربة في الاغتراب عن الحال .. »[١١] وها هو محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ) وهو احد شيوخ المتصوفة ، يستعمل لفظ « الغربة » الى جانب احد افعال الاغتراب « اغتربناها » في معرض اشارته الى فعل الخلق والانفصال عن الله قائلاً : « ان اول غربة اغتربناها وجوداً حسياً عن وطننا غربتنا عن وطن القبضة عند الاشهاد بالربوبية لله علينا ، ثم عمرنا بطون الامهات ، فكانت الارحام وطننا فاغتربنا عنها بالولادة »[١٢]

ولاشك ان « العامل الاقتصادي والعامل السياسي يشكلان اكبر دوافع الاغتراب في البحث عن الجذور »[١٣] لذلك كانا سبباً فيما عاناه ، العديد من الشعراء والادباء من غربة وهم في اوطانهم ، واخرى خارج اوطانهم ، فالترحل من اجل لقمة العيش وما صاحبه من مشقة وعناء ، والبقاء في الاوطان وما رافقه من قهر واذلال ، افرز نفراً من الادباء الغرباء شكل مادة كتاب ابي الفرج الاصبهاني (ت ٣٦٠ هـ) الموسوم بـ « ادب الغرباء » . وقد شرح المؤلف في مقدمة الكتاب دوافع تاليفه قائلاً : « ... وقد جمعت في هذا الكتاب ماوقع الي ، وعرفته ، وسمعت به ، وشاهدته ، من اخبار من قال شعراً في غربة ، ونطق عما به من كربة ، واعلن الشكوى بوجده الى كل متشرد عن اوطانه ، ونازح الدار عن اخوانه ... »[١٤] وبذلك عاني اولئك الادباء من اغترابات شتى ، مكانية واجتماعيةواقتصادية وروحية بسبب قلة حظوظهم في مجتمعاتهم ، وعيشهم على الكفاف ، في مواجهة ظروف حطت من اقدارهم ، ونالت من انسانيتهم .

وفي كتاب منازل السائرين يعرف شيخ الاسلام عبد الله الانصاري الهروي (٣٩٦ - ٤٨١ هـ) الاغتراب بانه : « امر يشار به الى الانفراد عن الاكفاء »[١٥] و يعني « ان كل من انفرد بوصف شريف دون ابناء جنسه فانه غريب بينهم لعدم مشاركه او لقلته »[١٦] وقد صنف الانصاري الانفراد هذا على ثلاث درجات : فثمة « الغربة عن الاوطان » وهذا هو الانفراد بالجسم ، وهو انفراد يشترك فيه الناس جميعاً لان الحياة الدنيا دار فانية يلتقي فيها الغرباء وسيلة للانتقال الى الاخرة ، وهي دار الاقامة الابدية . وثمة الانفراد بالحال « غربة الحال ، والحال هو الفعل ، وقد جعل الشيخ الغرباء في هذه الدرجة ثلاثة انواع هم :

« ... رجل صالح في زمان فاسد ، بين قوم فاسدين . او عالم بين قوم جاهلين او صديق بين قوم منافقين »[١٧]

اما الدرجة الثالثة من الانفراد فهي « غربة الهمة ، وهي غربة طلب الحق ، وهي غربة العارف ، لان العارف في شاهده غريب ، ومصحوبه في شاهده غريب ، وموجوده لا يحمله علم ، او يظهره وجد ، او يقوم به رسم ، او تطبيقه اشارة ، او يشمله اسم غريب . فغربة العارف غربة الغربة ، لانه غريب الدنيا والاخرة »[١٨] وهذه الاخيرة هي غربة الصوفية الذين افنوا انفسهم في حب الله والارتقاء اليه لذلك كانت اعلى درجات الغربة . فشاهد العارف في قوله « لان العارف في شاهده غريب » يعني « هو الذي يشهد عنده وله بصحة ماوجد ، وانه كما وجد ، وبثبوت ما عرف وانه كما عرف . وهذا الشاهد امر يجده في قلبه ، وهو قربه من الله ، وانسه به ، وشدة شوقه الى لقائه ، وفرحه به ، فهذا شاهده في سره وقلبه »[١٩] ولذلك عُدت غربة العارف « غربة الغربة » لانه غاير الصفات البشرية وتلبس الصفات الالهية .

وينقل لنا ابن باجة (ت ٥٨٣ هـ) وصفاً لصنف من الغرباء سموا بالنوابت تشبيهاً لهم بـ « العشب النابت من تلقاء نفسه بين الزرع »[٢٠] فهؤلاء « هم من لم يجتمع على رأيهم امة او مدينة ، وهؤلاء هم الذين يعنيهم الصوفية بقولهم الغرباء ، لانهم وان كانوا في اوطانهم وبين اترابهم وجيرانهم غرباء في ارائهم ، فقد سافروا بافكارهم الى مراتب اخرى هي لهم كالاوطان »[٢١] ومن هنا فان اغتراب هؤلاء هو اغتراب عن النظام غير العادل الذي لم يفرد لهم موقعاً ، او هامشاً ، حين ادار ظهره لهم ، وسقط هو في زخرف الحياة ، بينما ارتفعوا هم في مصاف الافكار التي عوضوا بها عن الاوطان .

ولعل الغربة باعلى درجاتها واقساها نجدها لدى ابي حيان التوحيدي (ت ٧٤٥ هـ) . فلقد عانى هذا الاديب الموهوب من مختلف ضروب العوز ، والغبن ، والاهانة ، عبر عنها ابلغ تعبير في « الاشارات الالهية » فالغريب عنده هو « من نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة » كيف لا ؟ وهو « غريب لم يتزحزح عن مسقط رأسه ولم يتزعزع عن مهب انفاسه ، واغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه ، وابعد البعداء من كان قريباً في محل قربه »[٢٢]

انها الغربة الروحية التي تلبست التوحيدي وهو في وطنه فاقامت برزخاً بينه وبين مجتمعه ، ولذلك نأى بقيمه ومثله ، ومواهبه ، وتسامى بروحه واحزانه يتأسى بشكواه ، ويتعزى بمناجاته .

ثم يستطرد في تفصيل ما ينال هذا الاديب من اهمال ، وتنكر ، واعراض فيقول : « الغريب من اذا ذكر الحق فُجر ، واذا دعا الى الحق زُجر ... الغريب من اذا قال لم يسمعوا له ، وان رأوه لم يدوروا حوله ... الغريب من اذا أقبل لم يوسع له ، واذا اعرض لم يُسأل عنه ، الغريب في الجملة كله حرقة ، وبعضه فرقة ، وليله اسف ، ونهاره لهف ، وغذاؤه حزن ، وعشاؤه شجن وخوفه وطن »[٢٢] فأي طوفان من الجحيم هذا الذي فغرفاه امام ابي حيان فابتلعه ، وابتلاه بشقاء ابدي ، وغربة ازلية ؟ ان وراء هذا الاغتراب غنى الفكر ، وسعة العلم ، ورهافة الاحساس ، ولكن المجتمع الغارق في الابتذال ، لم يكن يقدر تلك المناقب حق قدرها فكان البرزخ الرهيب الذي فصل بين الاديب وبين الواقع .

وبعد سقوط بغداد في قبضة المغول ، ينتهي العصر العباسي ويبدأ عصر جديد (٦٥٦ - ٩٢٣ هـ) اتسم بالانحطاط السياسي والتفاوت الطبقي ، والضعف العلمي والحضاري ، في ظل حكام كانوا في الغالب من غير العرب ، فتشيع الفوضى ويغيب العدل ، وينعدم تكافؤ الفرص ، إذ يتقدم الجهلة ، ويتأخر العلماء ، وتنتعش بعد ذلك ظاهرة الاغتراب في صفوف اهل العلم ، والمبدعين ، الذين اعتزلوا اخلاقيات العصر وانتبذوا خارج المجتمع مكاناً قصياً . وكان هؤلاء موضوع كتاب « الفلاكة والمفلوكون »[٢٩] لشهاب الدين احمد الدلجي (ت ٨١٥ هـ) . فالمفلوكون هم ضحايا المجتمع الظالم حين « استعجم الملك وجرى تخطي الحدود ... وزالت احوال البداوة ، من خوف الذمة وشدة الحياء والكرم »[٣٠] وقد استعرض الدلجي نماذج من « الفلاكة » في التاريخ العربي وكأنه بذلك يقدم العزاء لمفلوكي زمانه . ولاشك في ان « تغير الاحوال انما هو بتغير الملوك »[٣١] ولذلك فلا غرو اذا آل سقوط هيبة الحاكم الى استشراء الفساد ، وتفاقم الاحتكار ، وتأصل الانانية ، وليس من الغريب في ظل تلك القيم الرثة ان تقبل الدنيا على السوقة ومحترفي الشهوات ، وتعرض عن العلماء وهم « ملوك الناس »[٣٢] وليس امام هؤلاء المفلوكين الا ان يعزوا انفسهم بترديد هذين البيتين :

ما الناس الا مع الدنيا وصاحبها
فكيف ما انقلبت يوماً به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فان وثبت
عليه يوماً بما لا يشتهي وثبوا[٣٣]

الغربة والاغتراب عند الشعراء القدامى

عانى معظم الشعراء القدامى من الغربة والاغتراب ، وكتبوا من خلالهما شعراً خالداً ، يذوب رقة وتفجعاً :
فقد تغرب امرؤ القيس (توفي سنة ٨ قبل الهجرة) صغيراً وكبيراً : صغيراً عندما انكر عليه ابوه قول الشعر ، فالشعر لا يليق بابناء الملوك ، فشيّب باحدى نساء ابيه ، وخرج مغضوباً عليه في نفر من شذاذ طيء وكلب وغيرهم طلباً للصيد والمجون[٣٤] وكبيراً حين تحمل من بين اخوته - وهو الاصغر - مهمة الثأر من قتلة ابيه ، وما قولته الشهيرة : « ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً »[٣٥] الا صرخة غربته الروحية المركبة وهكذا « فقد تغرب غربة مزدوجة : الاولى عندما تصدعت علاقته بأبيه ، وخرج عن حياته الاسرية ، ثم ازدادت غربته عمقاً عندما لحق به الماضي في حياته الجديدة »[٣٦]

وكان مقدراً على الشاعر طرفة بن العبد (ت سنة ٧٠ قبل الهجرة) أنْ يخرج على مجتمعه ، ويتمرد على قيم القبيلة ، « فتتحاماه العشيرة ، وتفرده افراد البعير المعبد »[٣٧] فيلتحق بعمرو بن هند ملك الحيرة ، فيمدحه - ثم يُغضبه ، فيقتل غريباً .

ولم يكن الشاعر عنترة بن شداد العبسي بعيداً عن الاغتراب الاجتماعي ، الروحي المركب ، بسبب لونه ، ونسبه لامه وهي الامة الحبشية . هذا بالاضافة الى أنّ حبه لعبلة كان عنصراً عاطفياً مضافاً الى اغترابه ولكنه استطاع مواجهته بفروسيته وشجاعته ، فتخلص منه بعد ان انتزع اعتراف المجتمع به ، وتزوج من عبلة[٣٨]

ويعيش الشاعر ذو الرمة (١١٧ هـ) غربة اجتماعية عاطفية مزدوجة ، وربما كان مرضه العصبي[٣٩] سبباً في غربته الاجتماعية وعدم استقراره بالاضافة الى حبه « لمية » الذي استمر عشرين عاماً ، انتهى من جانبها بزواجها من ابن عمها . وكان في تنقله من المدينة الى الصحراء ، ومن الصحراء الى غيرها كمن « يقابل الغربة باغتراب آخر »[٤٠]

وعاني الطرماح (١٦٤ هـ) غربة سياسية بسبب مذهبه الخارجي واخرى مكانية اختارها بنفسه فهي « حالة من حالات الخروج من الوطن »[٤١] طلباً للرزق .

ويعيش الشاعر عمران بن حطان غربة اجتماعية بسبب دمامته ، وحين يعتنق مذهب الخوارج يعيش اغتراباً سياسياً يدفعه الى خوض القتال العقيدي ضد السلطة ، ويتسبب في تشرده متخفياً بين القبائل ، الى ان يموت غريباً في عمان .

ويعاني الشاعر عوف بن محلم الخزاعي من غربة مكانية مستمرة بسبب تنقله ثلاثين عاماً في جيش طاهر بن الحسين ثم مع ولده شاهداً حروب الري وخراسان وهو الذي خرج من الجزيرة العربية وفي هذا يقول :

أفي كل عام غربةٌ ونزوحُ
أما للنوى من فُنيةٍ فتُريحُ[٤٢]

وعاني الشاعر ابو تمام (٢٣٢ هـ) من اغترابات شتى . فقد ارتحل من قريته (جاسم) الى بغداد ، وعاش فيها

غريباً إلّا من خاصة الخاصة ثم تتقاذل بين مدن واقاليم مختلفة ، ولقي من اجل الرزق والمجد ذل السؤال ، وبؤس التغرب تحقيقاً لقوله :

وطول مقام المرء في الحي مُخْلِقٌ (٤٨)
لديباجتيه : فاغترب تتجدد

ولكنه سرعان مادخل في نفق غربة اجتماعية بسبب فشله في الوصول الى ما كان يسعى اليه ، فضلاً عما قاساه من فقره « عدداً من الابناء ـ [و] عدداً من اصدقائه الاوفياء »(٤٩) . وما ناله من اذى الحساد وسعاة الشر حتى انتهى به كل ذلك الى اليأس .(٥٠)

ويقف الشاعر ابو الطيب المتنبي (٣٥٤ هـ) على ذروة سلم المجد الادبي في الوقت الذي كان يعاني فيه من اغترابات شتى . فقد « ارتبطت قضية الاحساس بالغربة عنده باحساسه بالعروبة »(٥١) فثار على ملوك زمانه وقرر « الانفصال ... عن الواقع الاليم والتمرد عليه ورفض القيم التي تسود حياته »(٥٢) وقد شبه غربته الاجتماعية ـ الفكرية ـ الروحية ـ المكانية الحادة بغربة الانبياء والمرسلين :

ما مقامي بارض نخلة إلّا كمقام المسيح بين اليهود

انا في أمة تداركها الله
غريبٌ كصالح في ثمود(٥٣)

وقد تعرض الى ما تعرض له من اكبار واستهزاء ، واحتفال واحتقار ، متنقلاً من بلد الى آخر حتى لقي مصرعه دفاعاً عن كبريائه ، صارخاً من قبره ان « غربته عن جميع المذاهب القائمة والسياسات الحاكمة لم تسلمه إلّا الى الانطواء على شعره ، يحقق به وجوده ، ويذخر فيه اعلامه »(٥٤) .

ويعاني الشاعر ابو فراس الحمداني (٣٥٧ هـ) اغتراباً روحياً ـ مكانياً بسبب مرارة الاسر وعذابات الشوق الى الوطن والاهل ، ما انطقه تلك الروميات الخالدة .

ويعيش الشريف الرضي (٤٠٦ هـ) جملة اغتربات حادة على رأسها غربته الروحية التي تلبسته بسبب مآسي السلالة الهاشمية التي ينتسب اليها .(٥٥) وثمة غربته الاجتماعية « في مجتمع تضيع فيه القيم »(٥٦) فانسلخ عنه ولفه ، فـ « كل الورى للفاضلين اعادى » ولان العصبة التي عاش معها :

« ... ترى الجور عدلا ، وتسمي الضلال دار رشاد »(٥٧) .

وهناك اغترابة السياسي الذي ارتبط بطموحه المشروع من جهة ، وبانتمائه القومي العربي الاصيل بازاء الهيمنة البويهية على مقاليد الحكم من جهة اخرى .(٥٨)

ولابي الحسن علي ابن زريق البغدادي (ت سنة ٤٢٠ هـ) قصة هي اقرب الى المأساة فقد قيل انه كان من شعراء بغداد الفقراء ، وانه اراد الزواج من فتاة يهيم بها فلم يستطع لفقره ، فسافر الى المغرب ، ثم الى الاندلس ، ولكنه وجد يوماً ميتاً وتحت وسادته كانت عينيته المشهورة والتي يشكو فيها حاله وقصته مع الرحيل والتي مطلعها :

لاتعذليه فان العذل يولعه
قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه(٥٩)

اما الشاعر الخالد ابو العلاء المعري (ت سنة ٤٤٩ هـ) فقد عاش اغتراب النفس ، واغتراب المكان ، واغتراب الجسد ، فقد ولد عريقاً ، ولكنه نشأ زاهداً متقشفاً ، عازفاً عن لذائذ الدنيا ، مؤثراً الفقر ، وقد حبس نفسه ولزم بيته بالمعرة ، احتجاجاً على المجتمع ، بعد ان فقد ايمانه بالانسان بسبب تناقض قوله مع فعله ، وسيادة نزعة الشر في سلوكه كما فقد ايمانه بالحياة ، على الرغم من حبه لها ، لما لقيه من احباط ، في وقت نال فيه مَنْ هم دونه في الوعي ، وفي الشعور الانساني ـ وفي الموهبة فوق ما يستحقون .(٦٠)

وفي بلاد الاندلس يبدو أنّ معظم الشعراء مغتربون ، فقد تفشى شعر الغربة بشكل لافت للنظر ، وقد عبر عن هواجس الاغتراب « خير تعبير فكانت هناك الكثير من القصائد التي تصور الغربة عن الوطن وما يرافقها من حنين اليه جعلتنا نظن ان الشعر الاندلسي ما وضع الا للغربة والحنين ـ رغم وجود الفنون والاغراض الاخرى » .(٦١)

الهوامش

(١) مادة (غرب) .
(٢) الفائق في غريب الحديث ، الزمخشري ١ : ٣٥٠ .
(٣) ينظر : الزمن في شعر الرواد ، سلام كاظم الاوسي ، رسالة ماجستير على الالة الكاتبة ، هامش الصفحة ٥٤ .
(٤) ينظر : منازل السائرين ، ص ٨٨ .
(٥) ندوة حول مشكلة الاغتراب ، د . فتح الله خليف ، مجلة عالم الفكر ، مج ١٠ ، ١٩٧٩ ، ص ١١٤ .
(٦) ينظر : الاغتراب ، د . محمود رجب ، ١ : ٢٣ .
(٧) ينظر : نفسه ، ص ٣٤ ـ ٤٢ .
(٨) ينظر : الاغتراب في الذات ، د . حبيب الشاروني ، مجلة عالم الفكر ، مج ١٠ ، ع ١ ، ١٩٧٩ ، ص ١٩ .
(٩) تطور الفكر الفلسفي ، ثيودر اويزرمان ، ص ١٧٥ .
(١٠) جاء في سفر التكوين ١٧ : ١ ـ ٨ ما ياتي :
« ولما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لابرام وقال له : انا الله

الدير ، سر امامي وكن كاملاً . فاجعل عهدي بيني وبينك واكثرك كثيراً جداً . فسقط ابرام على وجهه . وتكلم الله معه قائلاً: اما انا فهو ذا عهدي معك وتكون ابا لجمهور من الامم ، فلا يدعى اسمك بعد ابرام ، بل يكون اسمك ابراهيم لاني اجعلك ابا لجمهور من الامم . واثمرك كثيراً جداً واجعلك امماً . وملوك منك يخرجون . واقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في اجيالهم عهداً ابدياً . لاكون الهاً لك ولنسلك من بعدك . واعطي لك ولنسلك من بعدك ارض غربتك » .

(١١) الانسان والاغتراب ، مجاهد عبد المنعم مجاهد ، ص ٣٢ .

(١٢) المكان نفسه .

(١٣) يرجح انه عاش في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي قبل الاسلام .

ينظر : ديوانه ، ص ١٨ .

(١٤) ديوانه ، ص ٢٥ ـ ٢٧ .

(١٥) صحيح مسلم ، ١ ، ١٣ .

(١٦) كشف الكربة في وصف حال اهل الغربة ، ابن رجب الحنبلي ، ص ١٥ .

(١٧) في التصوف الاسلامي وتاريخه ، نيكولسون ، ص ٢ .

(١٨) المكان نفسه .

(١٩) ديوان الحلاج ، ص ٣٠ .

(٢٠) الاغتراب ، د . محمود رجب ، ص ١٠ .

(٢١) التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق ، د . زكي مبارك ، ١ ، ٦٣ .

(٢٢) الفتوحات المكية ، ٢ ، ٦٩٦ .

(٢٣) الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، د . ماهر حسن فهمي ، ص ٣٧ .

(٢٤) أدب الغرباء ، ص ٢١ .

(٢٥) منازل السائرين ، ص ٨٧ .

(٢٦) مدارج السالكين ، ابن قيم الجوزية ٣ ، ١٢٦ .

(٢٧) منازل السائرين ، ص ٨٨ .

(٢٨) المكان نفسه .

(٢٩) مدارج السالكين ، ابن قيم الجوزية ٣ ، ١٢٨ .

(٣٠) رسائل ابن باجة الالهية ، ص ٤٢ .

(٣١) نفسه ، ص ٤٣ .

(٣٢) الاشارات الالهية ، ص ٨٣ .

(٣٣) الاشارات الالهية ، ص ٨٣ ـ ٨٤ .

(٣٤) المملوك لفظة اعجمية بمعنى الرجل غير المحظوظ المهمل في الناس لاخلاقه وفقره » ينظر : الاغتراب في الاسلام ، د . فتح الله خليف ، مجلة عالم الفكر ع ١ ، مج ١٠ ، ١٩٧٩ ، هامش الصفحة ٨٧ .

(٣٥) الملائكة والمملوكون ، ص ٦٨ .

(٣٦) نفسه ، ص ٦٢ .

(٣٧) نفسه ، ص ١٧٣ .

(٣٨) الملائكة والمملوكون ، ص ١٧٣ .

(٣٩) الاغاني ، ابو الفرج الاصبهاني ، ٩ ، ٨٧ .

(٤٠) نفسه ، ٨٨ .

(٤١) غربة الملك الضليل ، عبدالرشيد الصادق محمودي ، م فصول ، ع ٢ ، مج ٤ ، يناير / فبراير / مارس ، ١٩٨٤ ، ١٣٢ .

(٤٢) ينظر : شرح القصائد التسع المشهورات ، ٢ ، ٢٦٢ .

(٤٣) ينظر : الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، د . ماهر حسن فهمي ، ص ٩ .

(٤٤) ينظر : الاغاني ، ابو الفرج الاصبهاني ، ١٨ ، ٢ .

(٤٥) الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، د . ماهر حسن فهمي ، ص ٨ .

(٤٦) دراسات في النص الشعري عصر صدر الاسلام وبني امية ، د . عبده بدوي ، ص ٣٤٥ .

(٤٧) ينظر : طبقات الشعراء ، ابن المعتز ، ١٨٧ .

(٤٨) شرح الصولي لديوان ابي تمام ، ١ ، ٤٨ .

(٤٩) الغربة في شعر ابي تمام ، سلمان التكريتي ، م المورد ، ع ٤ ، مج ٤ ، شتاء ١٩٧٥ ، ص ٦٤ .

(٥٠) ينظر : نفسه ، ص ٦٦ .

(٥١) دور الاديب في الوعي القومي العربي ، من ملامح المروءة في شعر العصر العباسي ، د . عصام عبد علي ، ص ١٤٤ .

(٥٢) المكان نفسه .

(٥٣) ديوانه ١ / ٣٢٤ .

(٥٤) المتنبي شاعر العظمة والطموح ، د . المنجي الكعبي ، المتنبي ماليه الدنيا وشاغل الناس ، ص ١١٥ .

(٥٥) ينظر : الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ، عزيز السيد جاسم ، ص ٣١ .

(٥٦) من ملامح المروءة في شعر العصر العباسي ، د . عصام عبد علي ، دور الاديب في الوعي القومي العربي ، ص ١٤٩ .

(٥٧) ديوانه ، ١ ، ٢٩٨ .

(٥٨) ينظر : الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ، عزيز السيد جاسم ، ص ٧٩ وما بعدها .

(٥٩) ينظر : ادباء بغداديون في الاندلس ، د . محسن جمال الدين ، ص ٢٦ .

(٦٠) ينظر : التشاؤم في رؤية ابي العلاء ، عبد القادر زيدان ، م . فصول ، عدد ٢ ، مج ٤ ، ١٩٨٤ ، ص ١٥ .

(٦١) الغربة والحنين في الشعر الاندلسي ، احمد حاجم محمد ، رسالة ماجستير ، على الالة الكاتبة ، ص ٥٧ .